الثقافة في الرؤية الوجودية التوحيدية

أ.زوهير عبد السلام
Zohirbatni332003@yahoo.fr
جامعة الحاج لخضر باتنة
أ.عيسى بن حدوش
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ملخص :

إن موضوع الثقافة من أهم المواضيع التي يجدر بالمثقف أن يشتغل بها بشكل خاص، ذلك أنه كما يقول الأستاذ مالك بن نبي إن: "**أي إخفاق يسجله المجتمع في إحدى محاولاته، إنما هو التعبير الصادق على درجة أزمته الثقافية...**"، وعليه فإن أي محاولة لإعادة صياغة الإنسان الرسالي، هو في الحقيقة إعادة بناء الحضارة المنشودة، ولا يكون ذلك كذلك إلا بحل مشكلة الثقافة، لهذا قال مالك بن نبي إن: "**أي تفكير في مشكلة الحضارة هو أساسا تفكير في مشكلة الثقافة**". فما هي الثقافة ؟وما هي محاورها؟ وهل الثقافة محايدة؟ ومن هو المثقف؟ وما علاقة الثقافة بالتربية؟ وهل هناك تنافر بين الثقافة والعلم الشرعي؟، هذا ما سوف أن نتناوله بالدراسة في موضوعنا هذا من خلال رؤية أسميناها: الرؤية الوجودية التوحيدية في قبال الرؤية الوجودية الوضعية.

Résume

The issue of culture is one of the most important topics that should be preoccupied by the intellectual in particular because as Malek Ben Nabi said:(Any failure recorded by the community in one of his attempts is considered as a true expression of the degree of his cultural crisis). Therefore,any attempt to recast the human messianic is in fact a rebuild of the desired culture and this cannot be happen unless to dissolve the problem of culture.For this reason,Ben Nabi said that any reflection on the problem of civilization is essentially a reflection on the problem of culture.What is culture? What are its axes? Is it a neutral culture? Who is the intellectual? What is the relationship between culture and education? Is there dissonance between culture and islamic knowledge? This is what we will deal with in our theme through a vision that we called the monoteistic existential vision against positional existential vision

عذرا لاستهلالنا بهذه المقدمة في بيان المقصود بالرؤية الوجودية التوحيدية:

1-مفهوم الرؤية الوجودية التوحيدية:

هي كما عرفها أحد الباحثين الجزائريين -وهو يعبر عنها بالاتجاه الإيماني التوحيدي التكاملي- بقوله هو اتجاه: "**يتجاوز وعيه نطاق المادة المحسوس، إلى المعنى الروحي الكامن فيها، وإلى الانفتاح على كل أبعاد ومراحل ودلالات (الدورة الوجودية) للإنسان، فيعيش في تواصل حميم مع كل مفردات الكون ذات العلاقة التسخيرية به**"[1].

وبهذا تكون الرؤية الوجودية التوحيدية في مقابل الرؤى الأخرى بديل حقيقي شامل وكلي ومنسحب على كل المستويات وعلى كل المفردات المعرفية والمنهجية والعمرانية والسلوكية، شاملة لكل كلي وجزئي، ضابطة للعلاقات بين الله والإنسان عبادة، وبين الإنسان والكون تسخيرا وتمتعا واستفادة من خيرات الله، وبين الإنسان والإنسان محبة وتعاونا وتضامنا.

2-الإطار المنهجي للمقالة:

بعد أن حددنا مفهوم الرؤية التي نحلل ونؤسس مقولاتنا فيها ومن خلالها في مقالتنا هذا وفي غيرها يمكننا أن نحدد الآن الإطار المنهجي للمقالة هذه؛ فنحن لا نتحدث على الدارج مما يرسم في الكتب العامة حول حصر الثقافة في جنبها الشكلي ولا الإجرائي، واستفراغ الوسع في التدقيق والتوسع في ذكر الوصفات التقنية في صفات المثقف، وكأن المثقف والثقافة يحصران في المتخصصين في علوم معينة ومحددة، وهو خلل معرفي خطير؛ بل نتجاوزه إلى أوسع من ذلك بكثير.

ولهذا فإن الإطار المنهجي لموضوعنا موسع شامل: فالثقافة عندنا نظيرة في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة.

فطرحنا إذن هو ضمن رؤية شاملة تحيط بكل مستويات الثقافة التي نحسب أننا بهذا نعيد للإسلام امتداداته في كل مناحي الوجود؛ فلا يكون هناك مجال لا تشمله العناية الربانية من خلال نظام الله المصدق والمهيمن لتسيير الوجود بأكمله وهو الإسلام الشامل؛ يقول في هذا الصدد **الطيب برغوث**: "**إن ميزة المدرسة الحضارية في الفكر الإسلامي، تكمن في التركيبة التكاملية أو البنائية المتوازنة للمعرفة.. التي تفضي إلى**

1- الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية-قراءة في سنن التغيير الاجتماعي**- سلسلة: آفاق في الوعي السنني، ط1، 1425هـ/2004م، دار قرطبة، الجزائر، ص:42 .

استخلاص الأنساق السننية المنتظمة في الظواهر الكونية والنفسية والاجتماعية.. وجعل ذلك أساس الموقف المعرفي أو السلوكي أو الاجتماعي.. بعد ذلك، انطلاقا من وعيها بكون الفعل المعرفي أو الفعل السلوكي، أو الفعل الاجتماعي..هو باستمرار كل تكاملي مركب، وفق نسق منهجي معين، يتولى بناء (الدورة الإنجازية) للفعل، من بدايتها الذرية المتناثرة إلى نهاياتها التركيبية المتلاحمة، التي نراها ونلمسها نحن في نهاية الدورة، ككيان كلي متكامل، ولا نحس فيه أثرا مباشرا منظورا للعناصر الجزئية الكثيرة المركبة له، بعد أن انصهرت في مركب معرفي أو سلوكي أو اجتماعي جديد"[2].

ونحن بهذا نكون موحدين لا مبعضين، نؤمن بهيمنة الله على الوجود، ونكون بهذا أيضا موحدين لا مجزئين لأننا نؤمن بمطلقية القرآن ومحدودية التجربة الإنسانية؛ ونود أن نبين من خلال ما يوحي به مقالنا إلى تهافت مقولة ما يسمى بالمدرسة الحداثية ومن زعمائها المفكر الجزائري "**محمد عركون**" الذين يقولون بتاريخانية النص القرآني، ويستلزم من ذلك إمكانية النظر في النص ذاته.

بينما نحن ووفقا للرؤية الوجودية الكونية التوحيدية نقول بأبدية النص القرآني وتاريخانية التفسير والتأويل والقراءة؛ وهذا ما نبه عليه بعض أستاذنا.

كما أننا لا يمكن أن نغفل تأكيد الأستاذ مالك على دور الرابطة المسيحية في الحضارة الغربية؛ ذلكم أن أهم عنصر في الحضارة هو الإنسان، وأهم عنصر في الإنسان هو الثقافة، وأهم عنصر في الثقافة هو الدين؛ لأنه يولد الحوافز والروابط فهو المركب بشكل أساسي.

مدخل إلى موضوع الثقافة:

إن موضوع الثقافة من أهم المواضيع التي يجدر بالمثقف أن يشتغل بها بشكل خاص، ذلك أنه كما يقول الأستاذ مالك بن نبي إن:"**أي إخفاق يسجله المجتمع في إحدى محاولاته، إنما هو التعبير الصادق على درجة أزمته الثقافية...**"[3]، وعليه فإن أي محاولة لإعادة صياغة الإنسان الرسالي، هو في الحقيقة إعادة بناء الحضارة المنشودة ،ولا يكون ذلك كذلك إلا بحل مشكلة الثقافة، لهذا قال مالك بن نبي إن:"**أي**

2- – الطيب برغوث، **المرجع نفسه**، ص: 27.

3- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، دار الفكر، سورية، ط4، 1404هـ، 1984م، ص:92.

تفكير في مشكلة الحضارة هو أساسا تفكير في مشكلة الثقافة"[4]. فما هي الثقافة ؟وما هي محاورها؟وهل الثقافة محايدة؟ ومن هو المثقف؟ وما علاقة الثقافة بالتربية؟ وهل هناك تنافر بين الثقافة والعلم الشرعي؟

أولا: مفهوم الثقافة

1- الثقافة لغة:

إذا عدنا إلى معاجم اللغة الأصلية، نجد أن مادة هذا المفهوم "ثقف"، تدور على المعاني التالية: حذق، فهم، ضَبط ما يحويه، وقام به أو ظفر به، وكذلك تعني: فَطِنٌ ذكيٌّ ثابتُ المعرفة بما يحتاج إليه، وتعني: تهذيب وتَشْذِيبٌ وتقويمٌ، وتسوية من بعد اعوجاج .

يقول الزبيدي:" وثقافة: مصدر ثقف: صار حاذقا خفيفا، فَطِناً فَهِماً، وينقل عن ابن السِكِّيتِ [قوله:] رجل ثَقف...إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به، [و هو عنده أيضا بمعنى:] حذِرٌ و حذِراً، ذا حَذْقٍ وفِطَنٍ"[5]؛ أم الفيروز آبادي فقال:"ثَقُفَ:...ثَقْفاً وثَقَفاً، ثَقافةً، صار حاذقا خفيفا فطِناً"[6].

أما ابن منظور فقد أورد مفهوما مؤصلا من السنة، وهو ليس بعيد عن التعريفين السابقين، فقال: "ثقف: ثَقِفَ الشيءَ ثَقْفاً وثَقَافاً وثُقُوفَةً: حَذَقَه، رجل ثَقِفٌ وثَقُفٌ: حاذقٌ فَهِمٌ...ورجل ثَقيفٌ...بيِّن لثقافة"[7]، ثم قال:"ففي حديث الهجرة[8]: وهو غلام لقِنٌ ثَقِفٌ؛ أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه...وثَقُفَ...ثقافةً ثَقِفَ، فهو ثَقيفٌ... حذَقَ"[9].

4- مالك بن نبي، **فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج**، دار الفكر، سورية، ط:1405هـ، 1985م، ص:135.

5-مرتضى الزبيدي، **تاج العروس**، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مادة: ثقف، 52/6 .

6- الفيروزيادي، **القاموس المحيط**، دار العلم للجميع، لبنان، (د.ت)، مادة: ثقف، 121/3.

7- ابن منظور، **لسان العرب المحيط**، دار الجيل، بيروت، ط:1408هـ، 1988م، مادة: ثقف،1/364-365.

8- البخاري، **الجامع الصحيح** الحديثان:3616و5360، وأبو داود، **السنن**، حديث رقم:3561.

9- ابن منظور، **لسان العرب**،1/365.

2-الثقافة من حيث مضامينها:

بالنظر الفاحص إلى ما قاله أهل اللغة فيما نقلناه أعلاه، نجد المفهوم الحقيقي للثقافة؛ وذلك من خلال الدلالات المضامينية[10] للكلمة والتي تدل على أن:

أ- مضمونها ينبع من الذاتية الخاصة للمجتمع، ومن الذات الإنسانية، ولا يغرس فيها من الخارج، فالكلمة تعني تنقية الفطرة البشرية وتزكيتها وتقويم اعوجاجها، ثم دفعها لتوليد المعاني الداخلية الكامنة فيها، وتفجير طاقاتها لتنتج المعارف التي يحتاج إليه الإنسان[11].

ب- مضمون الدلالات اللغوية يعني أيضا: البحث والتنقيب عن الحق والعدل والحكمة، وكل قيمة تُصلح الوجود الإنساني، وتُقَوِّم اعوجاجه، وبهذا المفهوم فهي تعني فتح العقل البشري على كل المعارف والعلوم النافعة بما يحصل السعادة في الدارين، مع دفع تلك المعارف التي تؤدي بالإنسان إلى الاهتلاك والهلاك، ولا تتسق ومقتضيات التهذيب والتسوية وتقويم الاعوجاج[12].

ج- من مضامينها: أن الثقافة هي إدراك طبيعة قضايا المجتمع وما يصلحه، فهي في تعريف ابن منظور:"غلام لقن ثقف؛ أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه"، فهو يربط الثقافة بالنمط المجتمعي الذي يعيش في ظله، وليس بأي مقياس آخر، فالإنسان وفق هذا المفهوم مثقف طالما هو ثابتُ المعرفة بما يحتاج إليه في زمانه وعصره ومجتمعه، وبيئته، وعلى هذا المفهوم يكون المثقف أشد ما يكون مرتبطا بمجتمعه وقضاياه بغض النظر عن كم المعارف والمعلومات المكدسة في ذهنه، والتي قد تنفع أو لا تنفع مجتمعه[13].

د- إن قول أهل اللغة :"ثقفه تثقيفا: سواه وقومه"[14]، إنما هو بالنظر إلى الخصوصية المعرفية في اللسان العربي، بعيدا عن الدلالة اللاتينية لكلمة Culture، "القائم على الغرس والفرض والمعيارية في التعامل مع الثقافات الأخرى"[15]، والتي تتضمن في

10- نصر محمد عارف، **الحضارة-الثقافة-المدنية** "**دراسة لسيرة المصطلح و دلالة المفهوم**" المطبوع ضمن كتاب: **بناء المفاهيم:** دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، ط1418،1هـ، 1998م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مصر، ص:264-266 .

11-نصر محمد عارف، **بناء المفاهيم دراسة معرفية و نماذج تطبيقية**، 264/1.

12- نصر محمد عارف، **المرجع نفسه**،264/1.

13-نصر محمد عارف، **المرجع نفسه** ،265/1 .

14- الزبيدي، **تاج العروس**، مادة: ثقف،52/6

15- طه جابر العلواني، **إصلاح الفكر الإسلامي**،(سلسلة: إسلامية المعرفة: 10)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، ط:1416هـ، 1995م، ص:120

المفهوم العربي معنى التجدد اللامنتهي أبدا، فهي لا تعني أن إنسانا أو مجتمعا معينا حصل من المعارف والعلوم و القيم ما يجعله على قمة السُلَّم الثقافي، وإنما دلالة التهذيب والتقويم تعني التجدد الذاتي، أي التكرار والاستمرار في عملية التهذيب والنقد الذاتي والتقويم والإصلاح[16].

هـ- إن المضامين المعجمية للثقافة، تجعل منها مادة غير مقيدة أو مخصصة، هي عامة في دلالاتها للإنسان والجماعة والمجتمع، تشتمل على جميع أنواع الممارسات الإنسانية، وتعطي دلالاتها على أي مستوى تحليلي تستخدم فيه طالما تحقق مطلق التهذيب والتقويم؛ فهي إذن :

-ذاتية لا خارجية، تهدف إلى تنقية الفطرة البشرية، ودفعها للعطاء .

-تدفع إلى البحث عن الحق والعدل والحكمة بما يحقق المصالح ويدرأ المفاسد في الدارين .

-ترتبط بالنمط المجتمعي الذي يعيش فيه الإنسان، فهي بهذا تجعل من كل فكرة لم تنبع من عمق المجتمع الحضاري إما ميتة أو مميتة .

-عملية تهذيبية متجددة لا تنتهي أبدا، تأخذ من كل الإنتاج الإنساني وتفيد منه طالما تحقق مطلق التهذيب والتقويم .

3-الثقافة من حيث الاصطلاح:

بناءً على المفاهيم اللغوية، ثم المضامينية،يمكن أن نعرف الثقافة بأنها:"**مجموعة الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه**"[17]، وعلى هذا فهي: "**المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته...فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وهكذا نرى هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد**"[18].

16- نصر محمد عارف، **بناء المفاهيم**، 265/1.

17- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ص:74 .

18- مالك بن نبي، **شروط النهضة**، تر:عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط:1979م، ص:83 .

وهي كذلك:"**المحتوى العقدي والمعرفي والمنهجي والاجتماعي المتكامل .. الذي يؤسس وعي الإنسان بـ: (دورته الوجودية) أولا، وبـ: (ميزانيته التسخيرية) ثانيا، ويمنحه القدرات المنهجية أو الفنية المتجددة، التي تنظم عمليات تكيفه الذاتي والاجتماعي والحضاري والكوني .. مع وظيفته الوجودية ثالثا؛ عبر نوعية وحجم العلاقة الاستثمارية الوظيفية التي يقيمها مع (ميزانيته التسخيرية) في عوالم الآفاق، وعوالم الأنفس، وعوالم الهداية، وعوالم التأييد، لمواجهة تحديات الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، المهيمنة على الصيرورة الاستخلافية للبشر باستمرار**"[19].

وبهذا التعريف الشامل للثقافة، والذي يجمع بين النقاط التي وضعها أهل اللغة، من حيث مفهومها ومضامينها، يمكن أن نذكر تعريفا أقل شمولا ولكنه أدق معنى، يقول فيه صاحبه عن الثقافة أنها:" **نظرية في المعرفة ومنهجا في السلوك، ومنهجية في العمل والبناء**"[20].

ثانيا- محاور الثقافة :

إن الثقافة ليست مصطلحا مطاطا[21]، بل هي نظرية شاملة تُعبر عن روح وفلسفة المجتمع الحضارية، "**وهذه الثقافة التي تشكل طباع الإنسان، وتصبغ شخصيته بصبغة متميزة، وتزوده بنظرية في المعرفة، ومنهج في السلوك، ومنهجية في العمل و البناء**..."[22]، إذا ما استوفت جملة أربعة محاور، وضعها الأستاذ مالك بن نبي آتت أكلها في **بناء إنسان فعال، ومجتمع قادر على العطاء، وخوض معترك التدافع الحضاري بضمانات أكيدة في النجاح والتألق** وقد ذكرها على النحو التالي :

أ-التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية .

ب- التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام .

ج-المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام .

19- الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، دار قرطبة، الجزائر، ط1، 1425 هـ، 2004م، (سلسلة: آفاق في الوعي السنني:05)، ص:31.

20- الطيب برغوث، **موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي**، دار الينابيع للنشر والإعلام، الجزائر، ط1، 1413 هـ، 1993م، (سلسلة: لبنات في المسار الحضاري:01)، ص:14.

21- سامية السعاتي، **الثقافة والشخصية**، دار النهضة العربية، القاهرة، ط/2، 1983م، ص:33.

22- الطيب برغوث، **المرجع نفسه**، ص:15 .

د–الصناعة أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع[23]، وقد أعاد أحد الأساتذة صياغة هذه المحاور الكبرى، فكانت كالتالي :

"أ– محور منظومة العالم المعرفي .

ب–محور منظومة العالم الروحي .

ج–محور منظومة العالم السلوكي .

د–محور منظومة الخبرات الإنجازية"[24].

1– محور بناء العالم المعرفي :

وهو المحور الذي يتم من خلاله تزويد الإنسان بالمعارف الصحيحة حول سنن الله في الآفاق و الأنفس والهداية، ويتكون من :

أ. بناء المنظومة العقدية: من خلال بعث المفعول الاجتماعي للعقيدة في المجتمع والخروج من مرحلة القول بأطروحات لا عمل لها إلا إعادة تصنيف الأمة بين ضال ، وبدعي، وخارج من الفرقة الناجية، إلى جعل الناس يوحدون الله في كل أعمالهم، وفي هذا الصدد يقول ابن نبي:"**ليست المشكلة أن تعلم المسلم عقيدة هو يمتلكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: أن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة**"[25].

ب . بناء المنظومة الفكرية: وذلك من خلال تزويد الإنسان بمنظومة فكرية سليمة وصحيحة خالية من الأفكار الخوارقية، والخرافية واللاسننية، وضبط علاقات سليمة بين العناصر الأساسية التالية :

الإنسان مخلوق عابد مُسَخِّر، الكون: مخلوق مُسَخَّر للإنسان، الدين: نظام إلهي يضبط علاقة الإنسان؛ كمحور التغيير؛ بالله أصالة بعبادته، وبالكون تبعا بتسخيره؛ وعليه فإن هذه المنظومة تُبْنَى من خلال: المضمون المعرفي، والمضمون المنهجي: "**الذي يزود الإنسان بآليات تحصيل هذه المعارف، والتحقق منها، والإحاطة بكيفية عملها وسبل الاستفادة منها**"[26].

23– مالك بن نبي ، **شروط النهضة**، ص ص :79–89.

24– الطيب برغوث،**موقع المسألة الثقافية**، ص : 15 .

25– مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، تر:عبد الصبور شاهين، دارالفكر، دمشق، ط:1402هـ، 1981م، إصدار ندوة مالك بن نبي، ص:48.

26– الطيب برغوث، **المسألة الثقافية**، ص : 18.

جـ- بناء المنظومة المنهجية: وهو تزويد العقل المسلم بمنهج سليم يجعله يضع برامجه ويحل مشكلاته ويؤدي عمله وفق منهج قويم سليم، فهو المدخل المفتاحي للبناء الرسالي، يقول ابن نبي:"**إن من الممكن أن تؤدي الحلول الجزئية إلى حل شامل للمشكلة ... ولكن الطريق غير المنهجي هو أطول الطرق بلا شك، طريق المفاجآت التي تفجأ العقل التائه، طريق السائح غير المتحقق من وجهته أو هدفه** ..."[27].

ولما علق على أحد فصائل الحركة الإسلامية قال: "**فإذا حللنا جهوده وجدنا فيها حسن النية ولكننا لا نجد فيها رائحة منهج**"[28]، فبناء المنظومة المنهجية مدخل لا محيد عنه في بناء العالم الثقافي.

2-محور بناء منظومة العالم الروحي:

وذلك من خلال شحذ الروح بمقومات تزكيتها، ودفعها عاليا عن لوثات المعاصي والذنوب وذلك من خلال؛ التجرد لله في الفعل والترك، ومن خلال استحضار وجود الله ومراقبته المستمرة، وكذا بسلوك المسلك القرآني في العود على النفس بالمحاسبة والتوبة باستمرار ؛ لأنه المنهج الآدمي وبالأساس منهج النبي صلى الله عليه وسلم، كما لا تخفى قيمة التوكل على الله في الشؤون كلها وهو غير التواكل الذي يعني إغفال الأسباب في الفعل الإنساني.فهذه القيم الروحية والمحورية هي التي تضمن التوجه الإسلامي لمحمولاتنا الثقافية، والتوجه القرآني السديد لثقافتنا .

3-محور بناء منظومة العالم السلوكي:

ومعناه الارتقاء بالسلوك الإنساني، حتى تكون أعماله وأقواله تتغيا رضاء الله سرا وعلنا؛ ومعناه أيضا تطابق المعارف مع السلوكات، ولا يكون ذلك إلا من خلال شحذ الفرد والجماعية والمجتمع والأمة بالمنطق العملي، أو ما يسمى بالفعالية والميل به إلى التحقق بالنزوع الجمالي أو الذوق الجمالي؛ لأن الإسلام يدعو في فلسفته العامة إلى الجميل والرفيع من الأشياء، وإلى الإتقان والنظافة والجد والإبداع والسلوك الراقي والمظهر القدوة والكلام الرصين... كما يكون بشحذ الفرد والأمة والمجتمع بقيم الاجتهاد والتجديد والتخلص من عقد النقص والشعور بالدونية، والشعور الدائم باللاجدوى من الأعمال الخيرية والاجتماعية لذا قال ابن نبي: "**إن التاريخ لا يصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها، وإنما بفتح دروب جديدة**"[29].

27- مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية**، ص: 80 .

28- مالك بن نبي ، **بين الرشاد والتيه**، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر،دمشق، 1990،1.

29- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، دار الفكر، دمشق، ط1990،1م، ص: 220.

4-محور منظومة عالم القدرات الإنجازية:

هو كل ما من شأنه أن يساعد الفرد والمجتمع من الخبرات التسييرية والإدارية والتقنية لتحسين أدائها الاجتماعي؛ وذلك من خلال الاطلاع على سير الأمم وتاريخ وخبرات الرجال فيما يؤلف في تاريخ الأمم ومذكرات الرجال، وتقارير المؤسسات، وكذا العلوم التي تبين وتبني في الإنسان القدرة على التنظيم والإدارة والفعل المتقن والنافع .

ثالثا- هل الثقافة محايدة؟

إن الثقافة التي ينشدها الفكر الإسلامي، ثقافة إنسانية شاملة لأنه يستمد ذلك من عالمية رسالة الإسلام، وهذا ما تقرره نصوص الوحي من مثل قوله تعالى: "**وما أرسلناك إلا كافة للناس، بشيرا ونذيرا**..."[30]؛ بيد أن الثقافات الموجودة اليوم، ثقافات إستلابية مبنية على مرجعيات لا تجعل للوحي وزنا، بل وإن جذرها المعرفي Culture يدل على فلسفتها فهي قهرية المعنى خارجية المصدر فهي الغرس من الخارج بعد تفريغ الداخل، وليست ذاتية المصدر، جوانية المنبع، لهذا فإن التعامل معها يكون تعامل مستفيد مميز بين الغث والسمين من الخبرات ومناهج الغير، يقول ابن نبي عن الثقافة: "**هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة**"[31]، وهو يبين ما قلناه أعلاه، قال: "**وليس من شك في أن نظرات المثقفين إلى المدنية الغربية مؤسسة على غلط منطقي، إذ يحسبون أن التاريخ لا يتطور، ولا تتطور معه مظاهر الشيء الواحد الذي يدخل في نطاقه، حتى إنك لتنظر إلى الشيء بعد حين فتحسبه قد تبدل شيئا آخر، وما هو في الحق إلا الشيء نفسه تنكر لك في مظهره الجديد وإن شبابنا لينظرون إلى المدنية الغربية في يومها الراهن ويضربون صفعا عن أمسها الغابر، حيث نبتت أولى بذورها وتلونت في تطورها ونموها ألوانا مختلفة، وما فتئت تتلون عبر السنين حتى استوت على لونها الحاضر فحسبناها نباتا جديدا... [و]... إن أكبر مصادر خطئنا في تقدير المدنية الغربية أننا ننظر إلى منتجاتها وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد لولا صلات اجتماعية خاصة... وهل هذه العلاقات الخاصة في أصلها سوى الرابطة المسيحية التي أنتجت الحضارة الغربية منذ عهد شارلمان؟. ولسوف نصل في النهاية- إذا ما تتبعنا كل**

30- سورة **سبأ**، الآية:28 .

31- مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ص:74 .

مدني من مظاهر الحضارة الغربية- إلى الروابط الدينية الأولى التي بعثت الحضارة، وهذه حقيقة كل عصر وكل حضارة"[32]، وكل تربية وثقافة .

رابعا- من هو المثقف؟

إنه الإنسان الذي يحمل روح حضارته بكل أبعادها، الروحية والمعرفية والتاريخية والقيمية، هو ذلك الإنسان الذي يستنبت من حضارته أسباب النمو وعوامل النهضة، دون شعور بالنقص ولا بالمنبوذية، وهو الذي يصوغ حلول مشاكل أمته، مراعيا ظروفها الزمانية والمكانية وخصائصها التاريخية، الفكرية والدينية، وهو الذي يجعل أمته دائمة التجدد والتهذيب في أفكارها وسلوكاتها، وهو الذي يجعل من نفسه مرآة عاكسة لقيم حضارته .

المثقف هو ذلك الإنسان الذي يستوعب تراثه ويمتد ببصره نحو مستقبله، وهو الذي يبذر اليوم لتنبت أغراسه في المستقبل، وهو الذي يجعل أمته تتحرك على محور الواجبات، وهو الذي يعود نفسه صناعة الحضارة لا بانتظار اللحظات التاريخية الكبرى ولكل من لحظته التي يعيشها في يومه .

فهو ذلك الإنسان الفعال المتزود بالمنطق العملي، المبدع في أداءاته المتقن لإنجازاته؛ فإذا كان في حيز العالم الإسلامي كان فعله كله لله إعمارا للأرض، وتحقيقا لوعد الله بالاستخلاف في الأرض .

وبعبارة أدق: هو الإنسان الذي يتزود بمعارف الإنسانية، ويوصل قلبه بقيم السماء، ويتسلح بسلاح الفعالية فيعيش حاضر أمته وهمومها ويسعى للنهوض بها في إطار خصوصيات أمته .

خامسا- ما علاقة الثقافة بالتربية:

إن التربية والثقافة توأمان متداخلان لا ينفصلان، "**فهما يشملان كل ما له مدخل في تكوين الإنسان من حيث فكره وروحه وعواطفه وأحاسيسه ومهاراته العملية وسائر ملكاته**"[33] .

فمن الناحية العملية يصعب جدا الفصل بين التربية والثقافة، "**لا بل من المهم القول بأنه لا نجاح لعملية تربوية، إن لم تكن مستمدة من الواقع الثقافي للمجتمع**

32- مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار**، ص:80-81.

33- عبد المجيد النجار، **الشهود الحضاري للأمة الإسلامية (عوامل الشهود الحضاري)**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م، 289/2.

الذي تستهدف العمل فيه، فالإنسان كائن من كان، ومهما كانت قدراته الموروثة سيكون للمحيط الأثر البارز في نموه الجسدي والعقلي، وفي توجيه سلوكه وخلقه وفي إفساح المجال لظهور عبقريته أو قتلها في مهدها .

والثقافة في هذا الواقع مسؤولة عن التربية بكل وجوهها وبالنسبة لكل إنسان، وبذلك يكون الالتزام من التربية بقواعد الثقافة النابعة من الأرضية الفكرية للمجتمع هو طريق النجاح في بناء الإنسان، وتغيير ذاته"[34]، فالثقافة "**باعتبارها مصدرا لوجوه السلوك ليست مقصورة على صنف اجتماعي معين، ولكنها تشمل جميع الطبقات الاجتماعية، فالبيئة تعد إذن بمثابة الرحم بالنسبة إلى القيم الثقافية... فهي بيئة تمارس مفعولها على الراعي وعلى العالم سواء، وهي الوسط الذي يتشكل داخله الكيان النفسي للفرد، بنفس الصورة التي يتم بها تشكل كيانه العضوي داخل المجال الجوي الحيوي الذي ينتظمه"**[35].

وعلى أي حال فإن: "**الفرد منذ ولادته هو في عالم من الأفكار والأشياء يعتبر معها في حوار دائم، فالمحيط الداخلي الذي ينام الإنسان في ثناياه ويصحو، والصورة التي تجري عليها حياتنا اليومية تكون في الحقيقة إطارنا الثقافي الذي يخاطب كل تفصيل فيه روحنا بلغة ملغزة**".

وعلى هذا نلاحظ هذا التداخل بين التربية والثقافة، فالثقافة هي التي ترسم خط التربية، والتربية هي التي تنمي الثقافة؛ ومنه يمكن القول أن الإنسان هو نتاج البيئة الثقافية التي يتخرج منها، ويصبغ بها فيحصل من الطبائع والأخلاق وأنماط التفكير بحسب بيئته .

لهذا فإنه من الخطأ الجسيم أن تستورد برامج وكتب التربية والتعليم ثم صياغتها في أجواء وبيئات ثقافية محددة بظروفها النفسية والاجتماعية، إلى بيئات أخرى، لأن ذلك سيحدث الفوضى والاضطرابات في المجتمعات المنقولة إليها تلك البرامج والمشاريع .

هل هناك تنافر بين الثقافة والعلم الشرعي؟

لقد تبين لنا ما الثقافة؟ ومن هو المثقف؟ ... فالإنسان المسلم هو الذي يصدر عن مرجعية الوحي المنزه كتابا وسنة صحيحة، فإذا ما كان مختصا ومقتصرا بشكل

34-أسعد السحمراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، دار النفائس، بيروت، ط2، 1406 هـ، 1986م، ص:219 .

35-مالك بن نبي، **آفاق جزائرية**، تر: الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية، (د.ت)، ص:124-125.

جذري حاد في علوم الشريعة، وأعفى نفسه عن باقي العلوم الكفائية الأخرى، فهو لا يعد وأن يكون إلا كالمختص في علاج مرض محدد لا يمكنه أن يعالج أمراض أخرى... فهو بهذا عالم بعلوم الشريعة .

أما إذا ما كان محصلا لعلوم الشريعة ريان من معارف الإنسانية فهو المثقف، أي الحاذق الفطن الحكيم؛ ذلك أن مفهوم الثقافة قد تبين أنه لا يعني المفهوم الدارج الذي هو: المعارف العامة السطحية، لذا افتعل بعضهم التنافر بين العلم الشرعي، والثقافة، فالثقافة تحوي العلم بسنن الله في الآفاق والأنفس والهداية ...

خاتمة:

لقد تبين أن الثقافة ليست هي ذلك الكم الهائل المكدس من المعارف والخبرات، بل الثقافة نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة، وإن الثقافة هي رحم التربية، وأن التربية هي المنبع الثري الذي يمد الثقافة بروح جديد، فيقوم السلوك الإنساني ويطهر الفطرة البشرية ويجعلها زاكية طاهرة، والثقافة هي نتاج المجتمع المتفاعل مع مرجعيته الفكرية في إطار الزمان والمكان المعينين .

وإن الثقافة أكثر شمولا من التصور السطحي لها اليوم، الأمر الذي جعل بعض الناس يجعلونها مضادة للعلم الشرعي؛ بل إن المثقف أعم من المختص بحقل معرفي معين .

إن التمكن من إخراج الإنسان الرسالي ببناء سليم متكامل لعناصر أربعة متى تخلف واحد منها وقعت أزمة ثقافية .

وختاما فإن استعمال هذا المفهوم سابق عند سلفنا الصالح كما في الحديثين اللذين أخرجناهما في أثناء الموضوع. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مراجع الموضوع :

1-أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت، ط2،1406 هـ، 1986م.

2-البخاري أبو محمد، الجامع الصحيح، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، (د.ت).

3-أبو داود السجستاني، السنن، تحقق: عزت عبيد الدعاس و عادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، (د.ت).

4- سامية السعاتي، الثقافة والشخصية، دار النهضة العربية، القاهرة،ط/2، 1983م.

5-طه جابر العلواني،إصلاح الفكر الإسلامي،(سلسلة:إسلامية المعرفة:(10(، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، ط:1416هـ،1995م.

6- الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية-قراءة في سنن التغيير الاجتماعي- سلسلة: آفاق في الوعي السنني، ط1، 1425هـ/2004م، دار قرطبة، الجزائر.

7-الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، دار الينابيع للنشر والإعلام،الجزائر،ط1413،1 هـ،1993م، (سلسلة: لبنات في المسار الحضاري:01).

8-عبد المجيد النجار، الشهود الحضاري للأمة الإسلامية (عوامل الشهود الحضاري)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.

9-الفيروزبادي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع،لبنان،(د.ت).

10-مالك بن نبي ، بين الرشاد والتيه،تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر،دمشق، ط/1990،1م.

11-مالك بن نبي،آفاق جزائرية،تر: الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، (د.ت).

12-مالك بن نبي، شروط النهضة،تر:عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر،دمشق، ط:1979م.

13-مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، سورية، ط4، 1404هـ، 1984م.

14-مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي،تر:عبد الصبور شاهين، دارالفكر،دمشق، ط:1402هـ، 1981م.

15-مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونج، دارالفكر، سورية، ط:1405هـ، 1985م.

16-مالك بن نبي،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي،دار الفكر،دمشق،ط1، 1990م.

17-المرتضى الزبيدي، تاج العروس،دار صادر،بيروت،(د.ت).

18-ابن منظور،لسان العرب المحيط،دار الجيل،بيروت، ط:1408هـ،1988م.

19-نصر محمد عارف،الحضارة-الثقافة-المدنية "دراسة لسيرة المصطلح و دلالة المفهوم" المطبوع ضمن كتاب: بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، ط1418،1هـ، 1998م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مصر، ص:264-266 .